فى بـــــلاد الأحرار

للكاتب التركى الأستاذ أغا أغلو أحمد

بقلم الأستاذ أحمد مصطفى الخطيب

عندما استتب الأمر لمصطفى كمال فى تركية ، وشرع فى تنفيذ إصلاحاته العظيمة ، ألف البروفيسور الكاتب التركى المعروف أغا أغلو أحمد ، وأحد زملاء أتاتورك فى الجهاد ضد الاستبداد كتابه الموسوم بـ (فى بلاد الأحرار) ليكون نهجا واضحا للذين يريدون الإصلاح عملا ، والحرية خلقا ، ومكافحة الطغيان طبيعة ... وقد كتبه بأسلوبه البليغ الساحر فى شكل قصة شائقة خالية من الغموض والتعقيد ، يستطيع أن يفهمها بكل سهولة ويسر ، المتعلم مهما كانت ثقافته ، ويستثير ويتعظ بها قادة الحكم ومحترفو السياسة مهما كانت نزواتهم وشهواتهم

وقد خطر لى أن أنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية وأن أنشره فى شكل مقالات متسلسلة أولا ، ثم فى هيئة كتاب مستقل ثانيا

وإنى أعتقد أن الفرصة قد سنحت لإخراج هذا الكتاب القيم على أى صورة ... فثمة طاغ جبار يطرد من أرض الكنانة إلى غير عودة ... وقائد بار شجاع يتولى قيادة الأمة المصرية إلى حيث الشرف والعزة والكرامة والمجد .. وشعب أبى متحرر أنقذ نفسه بنفسه من عهد فاجر جائر ، يريد سلوك خير الطرق وأفضلها للوصول إلى أهدافه ومثله العليا .. أفلا يجب أن يكون لكتاب (فى بلاد الأحرار) مكان على صفحات الرسالة الزاهرة لينير الطريق ، ويرشد الضال ، ويوقظ النائم ، ويضع الأسس ، ويصف الداء ثم الدواء

أ . م . الخطيب

كنت أسيراً فشئت أن أكون حرا

كنت أسيراً ، فشئت أن أكون حرا ، حطمت سلاسلى ، وثقبت جدار الحصن . . فنفذت إلى الأرض الفضاء . . وهناك تنفست الصعداء

امتد أمامى براح شاسع .. ولم أكن عارفا إلى أين أتجه ؟ ولا ماذا أعمل ؟

خطوت بضع خطوات وأنا متردد محجم .. فوجدتنى على مفرق طريقين .. فقرأت هذه الكتابة القائمة على رأس عمود هنا :

الطريق المؤدى إلى اليسار طريق الحرية

الطريق المؤدى إلى اليمين طريق العبودية

التزمت جانب اليسار ، وسرت على قدمى حتى الصباح .. وعند انبثاق الفجر وجدت نفسى أمام قلعة .. وهناك قرأت لوحا كتبت عليه بأحرف ذهبية هذه العبارة :

« بـــلاد الأحرار »

قلت : هذه ضالتى التى نشدتها ثم هممت بالدخول . . قطع الحراس السبيل .. وسألونى :

— من أنت ؟ .. ومن أين قدمت ؟ .. وإلى أين تقصد ؟

فقلت :

— كنت أسيراً .. فحطمت سلاسلى وحضرت ههنا .. أريد أن أكون حرا ..

رمقنى الحراس بنظرات الفحص والتأمل . . كانت آثار السلاسل فى عنقى ، ومعالم القيود فى يدى ظاهرة جلية

— أجل ! .. يلوح لنا أنك قد حطمت قيود الأسر .. ولكن يا ترى .. هل اقتلعت قيودك الباطنية أيضا ، وقذفت بها ؟

قلت :

— لم أفهم ماذا عنيتم !

— إذن أجب عن هذه الأسئلة :

١ — هل أنت مسيطر على نفسك ؟

٢ — أتحب الصدق ؟

٣ — أتستطيع تحمل الحقيقة ؟

٤ — هل أنت ذو كبرياء ؟

اتضح لى أنهم يمتحنوننى قبل إفراجهم عن الطريق لدخول فأجبت عن كل هذه الأسئلة (نعم)

انحنى الحراس أمامى احتراما لى ، وفتحوا لى باب القلعة ثم رافقنى أحدهم إلى الداخل

كانت المدينة قد استيقظت ، والحوانيت والأسواق قد نشطت

وكان الجميع دائبين فى أعمالهم

إنها أول مرة فى حياتى ، كنت أرى فيها مدينة جميلة عليها سيما العمران كهذه .. فالسعادة والهناء تقرأها فى وجوه الأهلين أينما حللت ، وحيثما ذهبت . . وكان الذين يلقوننا فى الطرق يبتسمون فى وجوهنا ويهشون لنا ويرتاحون

وأخيرا انتهى بنا المطاف عندما وقفنا أمام باب دار كبيرة طرق الحارس الباب ، فجاء شيخ طاعن فى السن

قال الحارس مشيراً إلى

— وطنى جديد !

حيانى الشيخ باحترام ودعانى إلى الدخول ثم قادنى إلى غرفة فسيحة وقال :

هذا الموضع لكم بكل ما فيه وقبل أن أفيق من الذهول الذى انتابنى ؛ أضاف الشيخ إلى كلامه قائلا: سيحضر أساتذتنا بعد قليل لمقابلتكم .. خذوا قسطكم من الراحة الآن

وإذ غادر الشيخ الغرفة جاءنى رجل تبدو عليه أمارات الفتوة وأحضر لى طعاما وشرابا

وبعد لأى حضر الأساتذة أيضا .. وذهبوا إلى غرفة أخرى؛ وهناك سألونى من أنا ؟ ومن أين أتيت ؟ ولماذا قدمت هـــذا المكان ؟ فأجبتهم هكذا :

« .. أرومتى أصيلة .. بلادى نجيبة ، دمى طاهر نقى .. كان موطنى قديماً هضاب آسية الوسطى العالية .. ثم ثار الدم فى عروق أجدادى وهاج .. فتغلغلوا فى الشرق والغرب ، والشمال والجنوب . ، واجتاحوا الممالك ، وشادوا الدول ، وأنشأوا الحضارات ...

كان زعماؤنا قبلا يعيشون عيشة ساذجة ، يشاركون الشعب فى سرائه وضرائه ؛ يحترمون العهود والمواثيق ، يطيعون الحق ومجالس الشورى .. وكانت قادة الحكم ، ورؤساء القبائل وملوك البلاد لا يخشون شيئاً فى سبيل الذود عن كرامة الحق ، وقولة الصدق ، والتنكيل بالطغاة ، ومنع الاستبداد ...

وطوال استمرار الحال على هذا المنوال كانت بلادى قوية ، مهيبة ، مرفوعة الكلمة بين الممالك .. إلى أن جاء يوم فسدت فيه دماؤنا ، وشرعنا نقلد البلاد المستعبدة فى تقاليدها ومواطن ذلها . . فتلاشت مجالس الشورى ، واختل النظام ، وانتصر الاستبداد ، وصار شعبى السيد الآمر عبداً رقيقاً ...

ومنذ ذلك الحين انطفأت نارنا الواهجة ، واضمحل سيتنا الذائع ، وتلاشى صوتنا المدوى .. حتى حل يوم أراد فيه خاقاننا السافل أن يبيعنا للأغراب .. وعندئذ بلغ السيل الزبى ، وطفحت الكأس

خرج من صفوفنا شخص ذو شعور ذهبى ، وسحنة رجلية ، ونظرة هى نظرة الأسد بعينها ...

فإذا هو الذائد عن حمى بلاده ، والضنين بوطنه ، ورسول ربه الكريم ...

قال أقوالا بعثت بالحمى الدافقة إلى القلوب الجامدة ، وبالحياة إلى العروق الميتة ، عمل أعمالا دهش منها القاصى والدانى . . طرد الأغراب من المواطن وأسقط الخاقان من عرشه .. وهو اليوم منهمك فى لم شعث أمته حول راية الحرية الخافقة ...

إننى كنت حينذاك من أسرى الخاقان فى سجنه .. وبينما أتقلب على أشواك اليأس والقنوط ، إذا أنا بصوت رجل الحق يطرق سمعى ...

دبت فى الحياة فجأة ، فحطمت سلاسلى ، وأحدثت فجوة فى الجدار ، وجئت إلى هذه الديار فى طريق إلى الحرية التى أنشدها

أصغى إلى الأساتذة باعتناء واهتمام شديدين . . ثم قال أحدهم :

— أجل ! أجل ! إننا كذلك نعرف ذلك البطل ونحبه حبا جما ، ونحن إنما نعمل هنا وفقاً لمبادئه وفكرته ...

ثم أضاف إلى كلامه قائلا :

— هل عقدت النية على أن تكون حرا ؟

— نعم !